

صلاح الدين الأيوبي وموقفه من القوى المنافسة في بلاد الشام

٥٧٠٣/٥٨٩هـ - ١١٧٤/١١٩٣م

د. / عبد الكريم عبده حتاملة

ملخص:



كلنا يعلم ما لصلاح الدين من دور كبير في طرد الصليبيين من القدس وتحرير الوطن الاسلامي العربي منهم، لم يكن صلاح الدين يواجه خطر الصليبيين فحسب بل كانت هناك قوى داخلية تناوئه وتقف ضده بكل قوة وقد عملت على القضاء عليه بشتى الوسائل والأساليب الظاهرة منها والخفية، فتجسمت حيناً على شكل معارك حربية وأحياناً على شكل دسائس ومؤامرات واغتيالات بشتى صنوفها، هذه القوى كانت الفرقة الاسماعيلية (الباطنية) التي حاولت بكل ما أوتيت من حيلة وعزيمة بالانتقام من صلاح الدين لأنه كما كانوا يرون السبب الرئيس في القضاء على دولتهم واسقاطها (الدولة الفاطمية في مصر). فلم يألوا جهداً في تدبير المؤامرات وتكوين القوى المضادة ولو كلفهم ذلك وضع أيديهم في أيدي اليهود أو الصليبيين أو أي عدو آخر لصلاح الدين في سبيل الوصول إلى بغيتهم، واستمر العداء بين الطرفين ما يزيد عن التسعة عشر عاماً انتهى بعقد الصلح بينهما في قلعة مصياف بعد حصارها من قبل صلاح الدين مدة أسبوع.

قمت في هذا البحث المتواضع بتفصيل هذه الأحداث بالعودة إلى المصادر والمراجع التي كتبت حول هذا الموضوع بكل تجرد ومنهجية علمية وقد أوردت أقوال المؤرخين المؤيدين لكلا الطرفين وخرجت بعد الربط والاستنتاج من كل هذه الأقوال بخلاصة دونتها في نهاية هذا البحث.

ظهرت الحركة الاسماعيلية بوفاة الإمام جعفر الصادق في منتصف القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي. وبعد وفاته انقسم أتباعه إلى فرقتين رئيسيتين^(١).

الفرقة الأولى : وهم المعروفون بالاثني عشرية حيث الإمامة إلى موسى الكاظم فالأئمة من نسله حتى الإمام الثاني عشر (العائب).

الفرقة الثانية : وهم المعروفون بالاسماعيلية^(٢)، حيث جعلت الإمامة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد بن اسماعيل.

كانت الحركة الاسماعيلية سرية يعمل على ترويجها في الخفاء الإمام اسماعيل في حياة أبيه، وبمساعدة دعائه الأربعة^(٣). وفي زمن ولده محمد انتقل مركز الدعوة إلى (سملا)^(٤) ولكنه استقر أخيراً في مدينة تدمر. وعند وفاته سنة (٧٨٩/١٩٣) تولى الحكم بعده ابنه أحمد الوافي الذي نقل مركز الدعوة إلى مدينة سلمية في سورية والتي أصبحت في عهده مركز الدعوة والدعاة ودار هجرة للأئمة المستورين^(٥)، وبعد وفاته (٨١١/٢١٢) انتقلت الإمامة إلى ابنه رضي الدين عبدالله، وفي زمنه انتقلت الدعوة الاسماعيلية من طور التأسيس إلى طور العمل والظهور من أجل بناء دولة اسماعيلية قوية، وبعد وفاته تسلم الإمامة ولده عبدالله الذي ذهب إلى المغرب وأعلن الخلافة الفاطمية هناك وبذلك قامت الدولة الفاطمية التي انتقلت إلى مصر سنة (٩٦٨/٣٥٧).

وفي زمن الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤)، ازداد نفوذ الوزراء الفاطميين، فقد استبد الوزير بدر الدين الجمالي بالسلطة في مصر وابنه الأفضل غالي باغتصاب حقوق ولي العهد نزار^(٦) والبيعة لأخيه الأصغر المستعلي بالله، وقد انسحب فريق من الناس اثر هذه البيعة وأعلنوا ولاءهم لإمامة نزار وأولاده من بعده، وكان على رأس هؤلاء الحسن بن الصباح^(٧)، الذي بدأت في عهده الحركة الاسماعيلية بطور جديد وقد أصبحت الحركة الاسماعيلية الجديدة أكثر فعالية وتنظيماً من الدعوة الاسماعيلية القديمة فقد غدت «جمعية سرية لم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها الا زعماءها الأقلون وقادة أفكارها المقربون بعد أن قطعوا مراحل التكريس واقسموا القسم الغليظة»^(٨). بينما كانت الاكثرية الساحقة من الاتباع لا تعرف عن أمر هذه الجمعية الا الشيء القليل، والذي كان يطلعهم عليه الدعاة ويقدر معلوم^(٩).

وقد أطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة تسميات عديدة منها :

الباطنية. الذين ادعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب في القشر، وأنها توهم الأغبياء وتفهم الفطناء رموزاً وإشارات إلى حقائق خفية وإن من تقاعد عن العرض^(١١) على الخفايا والبواطن تعثر ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف واستراح من أعبائه واستشهد بقوله تعالى: «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»^(١٢). وقد سمو الباطنية لأن طائفة منهم شيعوا بابك الخرمي وكان قد خرج من ناحية أذربيجان في أيام المعتصم، فاستحل المحرمات فبعث إليه المعتصم الأفشين فتخاذل عن قتاله^(١٣). كذلك سمو بالحمرة لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك وكانت شعارهم^(١٤). وأيضاً سمووا بالتعليمية لأن مبدأ مذهبهم إبطال الرأي وإبطال تصرف العقل، وأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم^(١٥). وسموا أيضاً السبعية لأنهم زعموا أن الكواكب السبعة مدبرة للعالم السفلي، أما الغزالي فقد أورد سبباً لهذه التسمية وهو اعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة وأن الإنتهاء إلى السابع هو آخر الدور^(١٥). وهذا ما أميل إلى الأخذ به وذلك نتيجة الحركات الاسماعيلية التي لعبت دوراً هاماً في ذلك الزمن، وبالإضافة إلى ما ذكر فقد سمو بالحشاشين (Assassins) وهو اصطلاح عام للجاعات الفدائية السرية، وقد عني به في معظم اللغات الأوروبية (المغتال) الذي يقتل خلسة أو بالخيانة.

وعلى أية حال فإن حركة الاسماعيلية الجديدة «الحشاشين» ظهرت بشخص الحسن بن الصباح، الذي تمكن من احتلال قلعة الموت سنة (٤٨٣/ ١٠٩٠) الواقعة في المرتفعات الشمالية الغربية من فارس على شواطئ بحر قزوين الجنوبية^(١٧) وأصبحت فيما بعد مركزاً للدعوة ما بين سنة (٤٨٣ - ٦٥٤ / ١٠٩٠ - ١٢٥٦) وانتهجت أسلوباً جديداً في العمل والتنظيم فاستخدمت الاغتيال وبذلك تحولت من جمعية نظرية تؤمن بالأسلوب السلمي إلى جماعة حركية تؤمن بالاغتيال والتنظيم السياسي الدقيق^(١٨). وعلى هذا الأساس رأى الحسن ابن الصباح نشر دعوته والتوسع نحو الغرب، فكانت بلاد الشام اختياره الطبيعي كي يضعف الدولة السلجوقية القوية (السنية) ويحيطها من الشرق والغرب، ولكي يكون قريباً من إخوانه في العقيدة وهم الفاطميون (الشيعية) في مصر، كذلك إضعاف الخلافة العباسية (السنية) في

بغداد، أضف إلى ذلك عاملاً آخر هاماً يتعلق بالظروف الطبيعية والبشرية في سورية، فهناك سيجدون الدعم والعون من الشيعة والفرق الأخرى المتطرفة الذين كانوا يسكنون المناطق المرتفعة شرقي اللاذقية وجنوبها^(٢٩)، كذلك فقد كانت سورية نادراً ما عرفت الوحدة السياسية كما أن طبيعة أراضيها المتموجة وجبالها العصية تساعد على اتخاذها مركزاً للدعوة والدعاة^(٣٠). وفي سورية حاول الاسماعيليون بمختلف الوسائل السيطرة على الحصون والقلاع الحصينة لاتخاذها مقراً لأعمالهم واستخدامها «كقواعد لحملة الإرهاب»^(٣١) التي شنوها ضد أعدائهم من القادة والأمراء السنيين ومن وجدوا فيه خطراً يهدد دعوتهم ونتيجة لهذه السياسة التي ارتسموها فقد سيطروا على حصن مصياف والقدموس وإامية، وكونوا لهم جمعيات علنية في دمشق وحلب وقاموا بسلسلة من الاغتيالات كان ضحيتها الكثير من كبار رجال الدولة العباسية وأمرائها منهم الأمير جناح الدولة حسين (١١٠٢/٤٩٦)^(٣٢) والأمير خلف بن ملاعب سنة (١١٠٦/٩٩)^(٣٣) وأتابك الموصل مودود سنة (١١١٣/٥٠٧)^(٣٤)، كما قتلوا أيضاً سنقر البرسقي أتابك الموصل (١١٢٦/٥٢٠)^(٣٥) في جامع الموصل العتيق أثناء تأديته صلاة الجمعة، ولم يكتفوا بذلك فقد تمكنوا أيضاً من دخول عدد من الحصون بأعمال الحيلة كسيطرتهم على مدينة بانياس (١١٢٦/٥٢٠)^(٣٦) وبعد اتفاقهم مع الفرنجة سلموا هذا الحصن سنة (١١٣٠/٥٢٤)^(٣٧) وفي هذا العام نكب الاسماعيليون حيث ثار عليهم العامة والأحداث بدمشق وفتكوا بهم، بعد أن تكبدوا كثيراً من القتل والجرحى^(٣٨) مما يدل على كثرة أعدائهم في دمشق ولكنهم تعلموا درساً قاسياً بعد هذه النكبة وخرجوا بنتيجة قطعية: وهي أن المدن الكبيرة لا تصلح أن تكون مركزاً لحركتهم.

ترأس الحركة الاسماعيلية في منطقة الشام بعد تلك النكبات راشد الدين سنان^(٣٩) الذي قام بنقل مقر عمله من حلب إلى قلعة مصياف وسمي بشيخ الجبل^(٤٠)، وكانت مرتبته في الدعوة داعي دعاة ويليه في المقام: الداعية الكبير، ويليه: الداعية العادي، ويليه: الرفيق، وأخيراً الفداوية الذين اشتهروا بطاعاتهم العمياء في تنفيذ أوامر سيدهم شيخ الجبل^(٤١).

وتاريخ الاسماعيلية في الشام هو تاريخ الاغتيالات التي قاموا بها ضد المؤسسات السنية

بصورة عامة «فلم يقاتل الحشيشية عادة الإثني عشرية أو الشيعة الآخرين ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود المحليين»^(٣٢) وهذا يؤدي إلى التساؤل عن حقيقة التعاون بين الاسماعيلية والفرنجة من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية، ومن الأدلة التي تثبت حقيقة التعاون مع الفرنجة أنه في سنة (١١٧٣/٥٦٩) أرسل راشد الدين سنان وفداً إلى أمليرك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نور الدين، ولوح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية، وطلب منه مقابل ذلك الغاء الضريبة التي فرضتها فرسان الداوية من الفرنجة على بعض القرى الاسماعيلية، لأنه أدرك النتائج الإيجابية التي انطوى عليها ذلك الاتفاق، ولما عاد وفد الاسماعيلية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية دمر على أثره، مما أثار غضب أمليرك فبعث بكتاب توبيخ للجنة، وطلب من مقدم الداوية سجنهم، كما أرسل إلى سنان معذراً وأعلمه أن الجنة نالوا عقابهم، وكان لهذا العمل أثره الطيب مما زاد في ابقاء العلاقات الطيبة بين الطرفين.

وبعد وفاة نور الدين تجدد الاتفاق المعقود بين الفرنجة والاسماعيلية على قتال صلاح الدين والقيام بانقلاب داخل القاهرة للاطاحة بالحكم الأيوبي وإعادة الخلافة الفاطمية^(٣٤) أما علاقة الاسماعيلية باليهود، فكما يبدو أن عدداً كبيراً من اليهود كان يعمل بين صفوف الحركة الاسماعيلية لخدمة أهدافها، وقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار منطقة الشام حوالي سنة (١١٧٣/٥٦٩) بأنه كان يقيم بين الاسماعيلية في الشام نحو أربعة آلاف يهودي «يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وهم أشداء لا يقدر أحد على قتالهم، وبينهم العلماء التابعون لتنفيذ رأس الجالوت ببغداد»^(٣٥). وجد هؤلاء الاسماعيليون في صلاح الدين عدواً كبيراً لهم لأنه قضى على دولتهم الفاطمية في مصر، وتقدم إلى الشام لتوحيده وضمه إلى مصر وبخاصة أنه من القادة السنيين، ومن أجل ذلك قاموا وتعاونوا مع الفرنجة والزنكيين لأجل القضاء عليه، غير أن محاولاتهم فشلت، ففي سنة (١١٧٤/٥٧٠) راسل سعد الدين كمشتكين - أتابك الملك الصالح بن نور الدين - راشد الدين سنان أثناء حصار صلاح الدين لحلب، وبذل له أموالاً كثيرة وعدداً من القرى ثمناً لقتل صلاح الدين^(٣٦)، فأرسل سنان جماعة من فداويه إلى المعسكر الأيوبي، فلما وصلوا رأيهم أمير اسمه خمارتكين فعرفهم فقال

لهم، «ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتكم»^(٣٧) فهجموا عليه وقتلوه، وحمل أحدهم على صلاح الدين لقتله فقتل دونه، وقاتل الباقون من الاسماعيلية حتى قتلوا جميعاً بعد أن قتلوا جماعة من العسكر الأيوبي^(٣٨).

أوضحت هذه المحاولة الخطيرة لاغتيال صلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين ومن الصليبيين وأنه يجب عليه أن يحسب لهم الحساب.

ولم يكنف مقدم الاسماعيلية بهذه المحاولات الفاشلة لقتل صلاح الدين فقد أرسل إليه في ٤ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ/ ٢٢ أيار ١١٧٦م جماعة من أتباعه بزي الأجناد دخلوا بين العسكر الأيوبي وباشروا الحرب معهم حتى امتزجوا بهم انتظاراً لفرصة مواتية ليجهزوا على صلاح الدين فيقتلوه^(٣٩).

وفي أثناء محاصرة قلعة عزاز التي كانت أهم حصون حلب، تقدم صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي الأسدي لتشجيع العسكر على مواصلة القتال، وفي أثناء ذلك قفز عليه أحد الاسماعيلية وضرب رأس صلاح الدين بسكين معه وكاد يقتله لولا المغفر الزرد الذي كان تحت قلنسوة الناصر وكان صلاح محترزاً «لا يتزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد من على رأسه»^(٤٠) وأمسك السلطان بيد الملحد الباطني، ولم يستطع أن يحول دون ضرباته التي كانت موجهة إلى عنق الناصر المسمى بالكراعتد^(٤١) ولما لم يستطع الباطني قتل السلطان مد بالسكينة إلى خد صلاح الدين فخدشه وجرى منه بعض قطرات من الدم، ونتيجة لذلك أسرع حرس السلطان لحمايته من الملاحدة.

ونجبرنا ابن واصل عن هذه المحاولة بقوله: «وأسرع مملوك السلطان وهو سيف الدين بازكوج وأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها حتى قتل الباطني وجاء آخر - أي باطني آخر - فاعترضه الأمير داود بن متكylan الكردي فمنعه وجرحه الباطني في جنبه فمات وقتل الباطني وجاء آخر فعاثقه الأمير علي بن أبي الفوارس وضمه من تحت أبطيه وبقيت يد

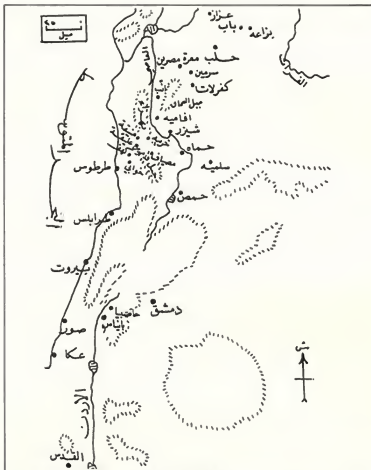
الباطني من ورائه لا يتمكن من الضرب ونادى علي: اقتلونني معه فقد قتلتني واذهب قوتي، فطعنه ناصر محمد بن شيركوه فقتله وخرج آخر من الخيمة – أي باطني آخر كان في خيمة السلطان – منهزماً، فثار عليه أهل سوق العسكر فقتلوه»^(٤٢).

ارتاع صلاح الدين لهذا الحادث وقد عاد إلى خيمته والدم يسيل على وجهه ثم استعرض جنده فمن أنكره أبعدته ومن عرفه أقره، وبعد ذلك أخذ بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول خيمته «على مثال خشب الحركاه»^(٤٣) وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب ورغم هذا تابع حصار مدينة عزاز حتى سلمت له بكرة الاربعاء ١١ ذي الحجة من سنة (٥٧٢/١١٧٦)^(٤٤).

كان لهذه المحاولة الفاشلة والتي استهدفت قتل صلاح الدين صدى بالغ الأثر في نفوس العسكر الأيوبي، فقد توقف القتال بسببها ذلك اليوم، وهاج الناس واضطرب الجند حتى خاف بعضهم من بعض «فأجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر»^(٤٥).

نستدل من هذه المحاولة على أن الحركة الاسماعيلية كانت دقيقة ومنظمة وسرية في عمليات الاغتيال، فبالرغم من وجود عدد من الاسماعيلية داخل العسكر الأيوبي غير المعروفين فإنهم لم يهجموا على صلاح الدين جميعاً دفعة واحدة، فربما حقق أحدهم هدف مجيئهم فيظل الباقيون غير مكشوفين لتنفيذ مهمات أخرى، لذلك فلا داعي لاشتراكهم جميعاً في هذه العملية، ولما لم يحقق الباطني الأول الهدف هجم الثاني ثم الثالث... وهكذا..

وقد ظلت الاسماعيلية مصدراً للتحلل السياسي والاجتماعي في بلاد الشام طيلة عصر الحروب الصليبية^(٤٦) واتخذوا من الاغتيال السياسي والتصفية الجسدية مبدأ ساروا عليه لتحقيق أهدافهم في السيطرة على أجزاء من بلاد الشام وانهاك القوى السنية فيها، حتى أن السلطان صلاح الدين كان هدفاً لمحاولتين استهدفتا اغتياله ولكنه نجا من خناجرهم^(٤٧).



نقطة الدعوة في بلاد الشام

وبالمقابل قام صلاح الدين بالهجوم على قلاعهم وحصونهم الممتدة على طول صفحة جبل لبنان في ٢٠ محرم سنة (٥٧٢/١١٧٦م) بقصد خرابها وقتل الاسماعيلية فيها، وأهم تلك القلاع والحصون: القدموس^(٤٨)، والكهف^(٤٩)، ومصيف^(٥٠)، والعليقة والرصافي والمنيقة والقلية والرصافة والخوابي وغيرها^(٥١). وقد تمكن صلاح الدين وعسكره من حصار بعضها ونصب عليها المجانيق الكبار ثم أوسع من بداخلها قتلا وساق أبقارهم وخرب ديارهم^(٥٢). كذلك حاصر قلعة مصيف مركز زعيمهم وهي أعظم حصونهم ولكنه لم يتمكن من فتح قلعة مصيف التي قاومت الحصار اسبوعاً، والروايات التاريخية مختلفة فيما حدث ولماذا انسحب صلاح الدين منها قبل أن يتم فتحها - ومن الروايات التاريخية التي تذكر ذلك رواية المؤرخ الاسماعيلي أبو فراس جاء فيها: «ان صلاح الدين انسحب من مصيف خوفاً من سنان، وحفاظاً على حياته مما رآه وسمعه من الخوارق التي كان يقوم بها سنان ضده»^(٥٣).

وتذكر الروايات الاسماعيلية أيضاً أن صلاح الدين تبادل الرسائل مع سنان وطلب منه التسليم فرد سنان بالرفض فأجابه على الفور بأنه مستعد لقتاله، وفي الليلة نفسها أرسل إليه سنان أحد فدائييه فتمكن من دخول خيمة صلاح الدين ووضع له عند رأسه اشعاراً ينطوي على بعض التهديد^(٥٤)، وفي الليلة التي أعقبتها ضرب صلاح الدين حول خيمته نطاقاً من الحراس وأمر بنشر الطحين حوالها، وفي الصباح وجد صلاح الدين سليماً وقد بدل محل مصايح خيمته، علماً بأن أحداً، من الحراس لم يشاهد أي زائر من البشر يدخل إلى الخيمة، فاستولى على العساكر الرعب سيما وقد هبطت إليهم رسالة بواسطة سهم من مصيف جاء فيها: «ألا فاعلموا أننا نروح ونغدو كما كنا في السابق ولن تعوقونا بحال من الأحوال»^(٥٥).

ومن الروايات الأخرى التي تذكر سبب مغادرة صلاح الدين مصيف ماجاء في الرواية التالية: «ما مد صلاح الدين سنان مع اثنين من مساعديه، وعندما أراد التقدم إليهم ببعض أمرائه للقبض عليهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على التقدم، لقد سيطرت عليهم قوة مخدرة جردتهم من قدرتهم، وقد انزعج صلاح الدين مما حصل واعتقد أن هناك قوة خفية تعمل لصالح عدوه، لذلك طلب مصالحة سنان وكسب جانبه»^(٥٦).

ويبدو من هذه الروايات التاريخية أنها عن مقدرة سنان أنها ضعيفة وغير دقيقة بدليل أن الاسماعيليين حاولت اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ولم تفلح في مسعاها، ولو صح أنها تمكنت منه كما ذكرت هذه الروايات لاستطاعت قتله. وهناك رواية تاريخية أخرى تذكر «أن عساكر صلاح الدين لما قتلت الاسماعيليين وضربت ديارهم، شفع فيهم خاله شهاب الدين - صاحب حماه - إذ كان راشد الدين سنان قد راسله في ذلك لأنه من جيرانه، فقبل صلاح الدين شفاعة خاله فيهم وترك حصار مصياف»^(٥٧) في حين يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل أن راشد الدين سنان لم يرسل شهاب الدين ويطلب منه التوسط لدى صلاح الدين بالكف عن حصار مصياف من باب الترجي أو التوسل إنما قال له: «إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه»^(٥٨).

ويستطرد ابن الأثير قائلاً: «أن العسكر الصلاحي ملّ من طول الانتظار لعدم التمكن من فتح مصياف، وكانت أيديهم مملوءة بالغنائم التي كسبوها من عسكر الموصل وبلد الاسماعيليين، فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم صلاح الدين وسار هو إلى مصر»^(٥٩) ولذلك انتهى حصار مصياف.

والحقيقة أن فشل حصار مصياف لم يكن لتهديدات سنان لصلاح الدين ولخاله شهاب الدين فحسب وإنما كان هدفه واضحاً للجميع وهو: توحيد الجبهة الإسلامية لمقاتلة الصليبيين وطردهم من البلاد المغتصبة، وخوفاً من هجوم الصليبيين على البلاد الإسلامية، ورغبة في عدم استنزاف المزيد من الوقت، وقد تحقق ذلك. فحين كان صلاح الدين محاصراً لمصياف أغار الفرنجة على بعض البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم - متولي بعلبك - فقتل منهم جماعة واسر أكثر من مائتين وأحضرهم إلى صلاح الدين في مصياف، فخاف أن يثور الفرنجة في الشام الأعلى وهو بعيد عنهم فصالح سنان وعاد إلى دمشق^(٦٠)، وربما كانت وساطة شهاب الدين قد جاءت في الوقت الذي كان صلاح الدين عازماً على مصالحة الاسماعيليين.

وعلى كل فإن الصلح تم بين الاسماعيلية وصلاح الدين ويبدو أن صلاح الدين اتبع معهم سياسة حكيمة جعلهم يقفون على الحياد للتفرغ للصليبيين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية، وعندما عقد صلاح الدين صلح الرملة سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) اشترط عليهم دخول بلاد الاسماعيلية في شروط الصلح حتى لا يستخدمهم الفرنجة في مهاجمة أملاكه^(١). كذلك فإن الاسماعيلية رغبوا في الصلح قبل أن يسعى إليه صلاح الدين لفشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله، وعدم وجود قوة عسكرية اسماعيلية تتمكن من التصدي للقوات الأيوبية، لذلك فضلوا وقوف صلاح الدين على الحياد على أن يكون عدواً مباشراً، لهم وكان صلاح الدين يرغب بمصالحتهم لحصانة قلاعهم وتهديدهم لحياته وأمنه ورغبته في التفرغ إلى الجانب الأكثر خطورة على مستقبل سياسته ودولته، كانت تلك الخطورة المتمثلة في تفكك الامارات الزنكية ورغبته بتوحيدها وضمها إليه أولاً والقضاء على الصليبيين في الشام وتحرير القدس ثانياً.



الهوامش :

- (١) برنارد لويس، أصول الاسماعيلية، نقله إلى العربية خليل أحمد جلول ورققه ط. القاهرة، د، ت، ص ٩٥-٩٦.
- (٢) يوسف غوامه غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، ط. عمان، ١٩٨١، ص ٤١ محمد جمال الدين سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ط. القاهرة، ١٩٦٠ ص ٤. كذلك أنظر هاملتون أ. وجب، صلاح الدين الأيوبي، تحرير يوسف ايش، ط بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦.
- (٣) ميمون الفداح، مبارك بن جعفر، الفضل بن عمر، حمدان بن أحمد، برنارد لويس، أصول الاسماعيلية، ص ١٠٧.
- (٤) سملاً: أطلق عليها فيما بعد اسم محمد أباده نسبة إليه. سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص ٥-٦ وهي مدينة في شمال الهند، محلة اصطاف على سفوح هملابا، كانت عاصمة الهند الصغرى. المنيل دار المشرق، ط ٢٧، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٦٦.
- (٥) دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، ط. بغداد، ١٩٧٦، ص ٣٦٤-٣٦٥.
- (٦) الفلستيني ت (١٢١٨/٨٢١): أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، صحح الأعشى في صناعة الانشاء، ط القاهرة، ١٣٣٨/١٣٣١هـ، ج ١٣، ص ٢٤٥ كذلك أنظر أبو شامة ت (١٢٦٧/٦٦٥): شهاب الدين بن محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المغربي، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ط القاهرة ١٩٥٦، ص ٥٢.
- (٧) هو الحسن بن علي بن محمد الحميري، ولد في قم وكان كوالده من الشيعة الاثني عشرية، عبر أنه وقع تحت تأثير أحد دعاة

الفاطمية واسمه (عالم دراب) وتنقل على عدد من الدعاة الاسماعيليه، وكان رجلاً ضموحاً يعلم بإقامة دولة جديدة وفي رمضان سنة ٤٦٤/١٠٧٢م ذهب إلى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية بعد أن عمل كوكيل لابن عطاش الداعي في مدينة اصفهان لمدة سنتين وقد تمكن من العودة إلى فارس ثم تسلسل إلى قلعة الموت واحتلها وبعدها تمكن اتباعه من السيطرة على عدد من الفلاح الخصبة في جبال فارس. مصطفى غالب، اعلام الاسماعيليه، ط. بيروت، ١٩٦٤ ص ٢٢٢-٢٢٨. فريد حماد محمد عاشور جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١، ص ٦٨-٦٩.

- (٨) بنفلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، ط. الاندلس، ١٩٢٨، ص ٥٢.
- (٩) دريد توري، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام، ص ٣٣٦، محمد عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق، ط. القاهرة، ١٩٠٧، ص ١٨-١٩.
- (١٠) ابن الجوزي ت (٥٩٧/١٢٠١): أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، القرامطة تحقيق محمد الصباغ، ص. بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٧.
- (١١) قرآن كريم، سورة الاحراف، آية ١٥٧.
- (١٢) من المعروف ان الاثنين اسر بابك وألجأه إلى سر من رأى ثم قتل. أنظر ابن الجوزي، القرامطة، ص ٢٩.
- (١٣) ابن الجوزي، نغد العلماء أو تلخيص ابليس، ط. بيروت، ١٩٦٨، ص ١٠٢ ثم القرامطة، ص ٢٩.
- (١٤) ابن الجوزي، القرامطة، ص ٥٠.
- (١٥) ابن الجوزي، تلخيص، ابليس، ص ١٠٢.
- (١٦) دريد توري، سياسة صلاح الدين في مصر والشام، ص ٣٦٧.
- (١٧) عبد العزيز سالم، طرائف الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٤٧٤، فليبي حن، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ترعة جورج حداد وكيل البازجي، ط. بيروت ١٩٥٨-١٩٥٩، ص ٢٤٥-٢٤٦، وليم لا نجر، موسوعة تاريخ الإسلام، أشرف على ترجمتها محمد مصطفى زبده ط. القاهرة، ١٩٥٩، ج ٢، ص ٩٥.
- (١٨) محمد كامل حسين، طائفة الاسماعيليه، تاريخها، تنظيمها، ط. القاهرة د.ت، ص ٦٣. دريد توري، سياسة صلاح الدين، ص ٣٧٠.
- (١٩) ابن جبير ت (٦١٥/١٢١٧): أبو الحسن محمد بن أحمد الكناشي الأندلسي، رحلة ابن جبير ط. بيروت ١٣٨٤/١٩٦٤.
- (٢٠) يوسف الخواله، غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، ص ٢٠.
- (٢١) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيليه الجديدة (الحشيشية)، نقله إلى العربية د. سهيل زكار، ط. بيروت، ١٩٧١، ص ١١٥.
- (٢٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- (٢٣) جناح الدولة حسين صاحب حصن عمدوا سنة (٤٩٦/١١٠٢) إلى اغتياله حيث وثب عليه (ثلاثة نفر عجم من الباطنية) وقتلوه بالسكاكين. ابن الأثير ت (٦٣٠/١٢٣٣) أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج ٨، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص ٤٩٥.
- (٢٤) صاحب حصن اقمية الذي استولى عليه الاسماعيليه بعد مقتله. أنظر ابن الفلاس ت (٥٥٥/١١٦٠): أبو يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمبروز، ط. القاهرة، ١٩٠٨، ص ١٤٩.
- (٢٥) ذكرت المصادر انه كان مجاهداً نقياً، قتل الاسماعيليه بعد انتهائه من صلاة الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة (٥٠٧/١١١٣) في دمشق، عندما كان عازماً على توحيد الجيوش الإسلامية لمحاربة الفرنجة. كتب مودة أهل بلاد الشام، حتى نبوا قيادة المسلمين في الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة، غير أن الاسماعيليه اغتالته لأنه عدد مصاصها. المصدر نفسه، ص ٢١٤.

- (٢٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠، ص ٦٣٢.
- (٢٧) دريد توري، سياسة صلاح الدين، ص ٣٧١.
- (٢٨) قدر عدد قتلاهم بسنة ألف، ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٥٧.
- (٢٩) من أهالي عقد السودان (قرية قرب البصرة) ذهب إلى حصن الموت، وهناك أثبت جدارة ونباعة عقل، أرسله صاحب الموت إلى حصون الشام ليتزعم قيادة الاسماعيليه، قاتل السلطان نور الدين محمود في عدة معارك، توفي سنة (١١٩٣/٥٨٩).
- مزيهداً من التفاصيل أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٥، الباقمي ت (١٣٦٦/٧٦٨): أبو محمد عبدالله بن أسعد مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج ٣، ط. حيدر آباد الدكن، ١٩٧٠، ص ٤٤٨.
- (٣٠) برنارد لويس، الحشيشية، ص ٢٠٧، كذلك صفحة ٢١٢.
- (٣١) Browne (Edward G): A Literary history of Persia Vol. II, Cambridge, 1951, p.209.
- (٣٢) برنارد لويس، الحشيشية، ص ١٥٣.
- (٣٣) Runciman (Stevan): A history of the crusades Vol. II, London 1957, P.688.
- (٣٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٢، فيليب حتى، تاريخ سورية وفلسطين ج ٢، ص ٢٤٥ - ٣٤٦. عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، في التاريخ الإسلامي، ص ٤٧٤، الاسكندرية، دار المعارف ١٩٦٧، يوسف غوانم، احارة الكرك الأيوبية، ص ١٠٨.
- (٣٥) بنيامين ت (١١٧٣/٥٦٩): الربيع بن بونه التظليل، رحلة بنيامين، ترجمة عن العربية عزرا حداد، ط. بغداد، ١٩٤٥، ص ١٥٣ - ١٥٤.
- (٣٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩. أبو شامة ت (١٢٦٧/٦٦٥): شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط. القاهرة، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.
- (٣٧) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩.
- (٣٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٩ - كذلك أنظر ابن واصل ت (١٢٩٨/٦٩٧) جمال الدين بن سالم، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيبال، ط. القاهرة، ١٩٥٧، ج ٢ ص ٢٦.
- (٣٩) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١ ص ٢٤.
- (٤٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها، كذلك أنظر البنداري ت (١٢٥٤/٦٤٣): قوام الدين أبو علي بن محمد، سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب البرق الشامي للهاد الاصفهاني، تحقيق د. رمضان ششن، ط. بيروت، ١٩٧١ ج ١، ص ٢١٠.
- (٤١) الكراعت: صفائح الحديد. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٢٥.
- (٤٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٤ - ٤٥.
- (٤٣) الحركاء: لفظ فارسي معناه نوع من الخيم يتكون من قطع الخشب معقود بينها على شكل قبة ويقال انه أيضاً قبة تركية وتغطيها قطع من البلد البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١ ص ٢١١. دريد توري، سياسة صلاح الدين في مصر والشام، ص ٣٨٠ - ٣٨١ (المناش رقم ٧).
- (٤٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢ ص ٤٥.
- (٤٥) ابن كثير ت (١٣٧٤/٧٧٤): عباد الدين بن أبي الفداء اسماعيل، البداية والنهاية، ج ١٢، ط. القاهرة، ١٩٣٢، ص ٢٩٣.
- (٤٦) برنارد لويس، الدعوة الاسماعيليه الجديدة، ص ١٢٥.
- (٤٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ الحركة الاسماعيليه، ج ١ ط. القاهرة ١٩٧٥، ص ٥٤٦، يوسف غوانم، غلاة الشيعة

الباطنية في بلاد الشام، ص ٣١.

- (٤٨) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٤١. ابن كثير، البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٠٤.
- (٤٩) كان الكهف والقدموس حصان من الحصون التابعة لعائلة طرابلس ومما حصان منجان. أنظر الطاهري ت (٨٧٣هـ/١٤٦٨م): غرس الدين خليل بن شاهين كتاب زبدة كشف المالك وبيان الطرق والممالك، ط. باريس ١٨٩٣، ص ٤٨.
- (٥٠) مصياف: كان من أسع الحصون ويقع على الساحل الشامي قرب مدينة طرابلس، اتخذ سنان مركزاً خركته وقد استولى عليه سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) بحيلة دبرت عليه ومكيدة نصبت له، ودخلوا فيه وقتلوا صاحبه مملوك بن منقذ أصحاب شبرز، مزبداً من التصيلات أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٣٩، سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج ١، ص ٥٤٤. دريد نوري، سياسة صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، ص ٣٨٢ (الخاتمة).
- (٥١) رينارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ص ١٢٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٦٩.
- (٥٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٤٣٦.
- (٥٣) ابن العماد (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): عبد الحى الخنيلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. بيروت، د.ت. ج ٤، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ كذلك أنظر :-
- Runciman (Stevan): A history of the crusades Vol II. London, 1957. p.410.
- دريد نوري، سياسة صلاح الدين ص ٣٧٣.
- (٥٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٤ ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
- (٥٥) هارولد لامب، شعلة الاسلام، ترجمة محمود عبدالله، ط. بغداد، ١٩٦٧، ص ٧١ - ٧٢.
- (٥٦) Rosebault (Charles J.): Saladin prince of chivlary, London 1930, pp.112-114.
- (٥٧) أبو شامة، الروضتين، ج ١ ص ٢٦١.
- (٥٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٣٦.
- (٥٩) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- (٦٠) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٢٦١.
- (٦١) المصدر نفسه والصفحة نفسها، كذلك أنظر يوسف غوانم، إمارة الكرك الايوبية، عمان، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ١٦٧.

